المحاضرة التاسعة: الصحافة الجزائرية قبل الإستقلال

تعدّ الصحافة الجزائرية قبل الاستقلال مجالاً بحثياً خصباً يكتسي أهمية تاريخية وإعلامية بالغة، إذ نشأت في سياق استعماري معقد. لم تكن هذه الصحافة مجرد وسيلة لنقل الأخبار، بل مثلت منبراً حيوياً للحركة الوطنية والنضال بكافة أشكاله، حيث تنوعت مضامينها بين منابر استعمارية رسمية وصحافة وطنية أهلية برزت بقيادة نخبة مثقفة. ركزت الصحافة الوطنية على الحفاظ على المقومات اللغوية والدينية للشعب الجزائري، وتعزيز الهوية الوطنية ونشر الوعي السياسي والتربوي، وفضح جرائم الاستعمار، كما سعت هذه الوسائل الإعلامية رغم الإمكانيات المتواضعة والرقابة الشديدة، إلى كسب ثقة الجزائريين وتغذية روح الاعتزاز بالوطنية والانتماء، وترسيخ قيم التحرر. ومع اندلاع ثورة نوفمبر 1954 تطورت هذه الممارسة الإعلامية لتصبح أداة دعائية وسياسية بالدرجة الأولى، ولساناً ناطقاً باسم الثورة. بالتالي فإن دراسة هذا الأرشيف الصحفي تتيح فهماً أعمق للسيرورة التاريخية للنضال الجزائري والدور المحوري الذي لعبه الإعلام في تحقيق الاستقلال. ومن هذا المنطلق يبرز التساؤل الجوهري حول الكيفية التي تحول فيها الإعلام من أداة استُخدمت لفرض الهيمنة الاستعمارية إلى سلاح استراتيجي وظفته الحركة الوطنية الجزائرية لاحقاً لصياغة الهوية والتحضير للثورة التحريرية.

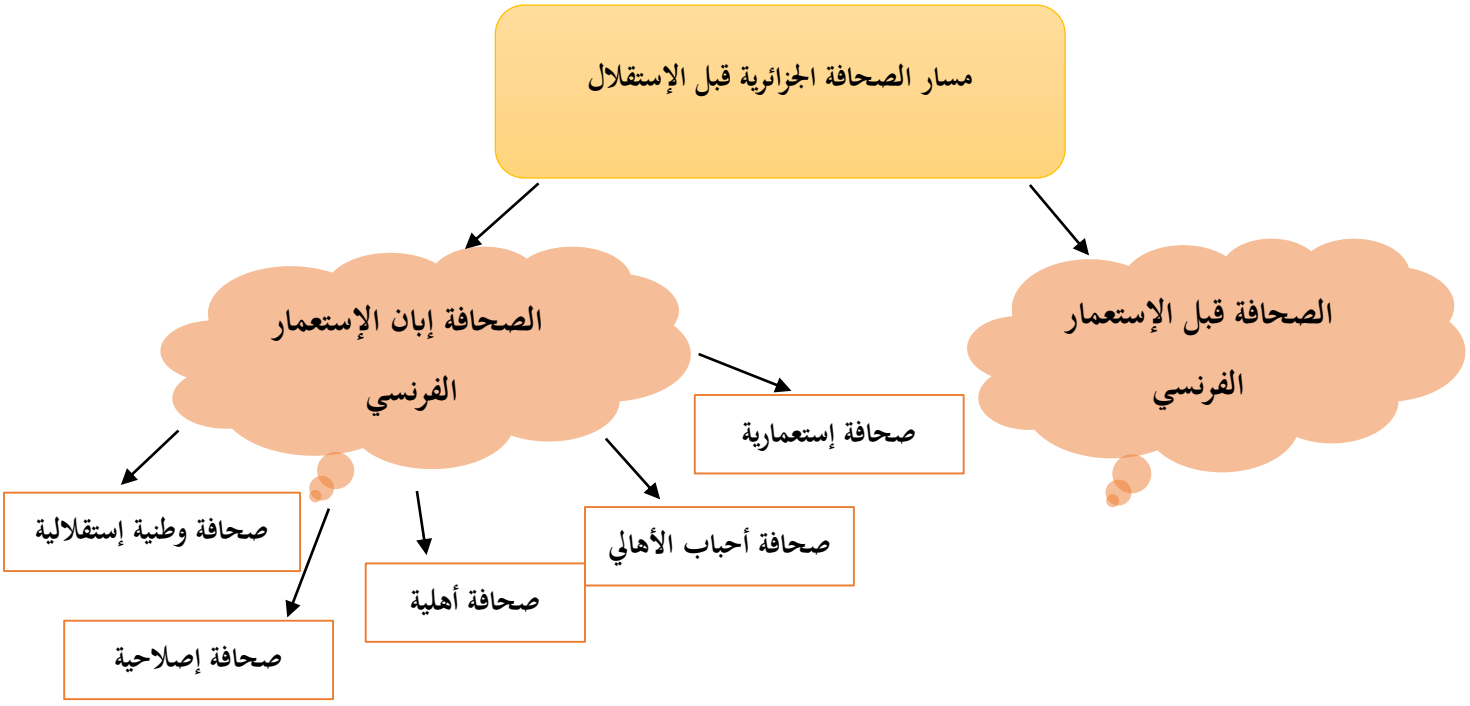

1. الصحافة قبل الإستعمار الفرنسي:

تعدّ نشأة الصحافة في الجزائر ظاهرة تاريخية استثنائية ارتبطت سياقياً بالتحولات الجيوسياسية الكبرى؛ فبالرغم من أن المطبعة قد استقرت في أوروبا قبل قرنين من سقوط الجزائر، وبالرغم من الروابط الدبلوماسية والتجارية الوثيقة التي جمعت "إيالة الجزائر" بالحواضر الأوروبية، إلا أن الذاكرة التوثيقية لا تحفظ أي أثر لممارسة صحفية محلية بالمفهوم الحديث خلال تلك الحقبة.ولم تكن الجزائر بمنأى عن النمط السائد في المنطقة العربية آنذاك، حيث ظلّت الأدوات الإعلامية رهينة القنوات التقليدية والمخطوطة، ولم تنتقل إلى الطور المؤسساتي والصدور الدوري إلا تحت وطأة الصدام مع الآخر الغربي، على غرار ما شهده المشرق العربي مع الحملة الفرنسية على مصر. ومع ذلك لا يعني غياب الصحافة المطبوعة غياب أشكال أخرى من التواصل والإعلام التقليدي ففي الجزائر العثمانيةكانت قنوات الاتصال تعتمد على المراسلات الدبلوماسية، والإعلانات الشفهية في الساحات والأسواق، والوثائق المكتوبة بخط اليد التي كانت تُعمم بين النخب والحكام. هذه الأشكال البدائية من تداول المعلومات كانت تخدم أغراض الدولة والمجتمع آنذاك ولكنها لم ترقى إلى مستوى "الصحافة" كمؤسسة إعلامية دورية ومطبوعة.

2. المسار الكرونولوجي للصحافة المكتوبة في الجزائر إبان العهد الإستعماري:

مثلت الصحافة الاستعمارية في الجزائر التي ظهرت مع بدايات الغزو العسكري الأداة الدعائية والإيديولوجية الأبرز للإدارة الفرنسية والمعمرين .لم تكن هذه الصحافة محايدة بطبيعة الحال بل صُممت في الأساس لتكون صوتاً للهيمنة، ووسيلة لترسيخ الوجود الاستعماري، والدفاع عن مصالح المعمرين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد تنوعت هذه الصحافة لتشمل إصدارات إدارية رسمية كانت تنشر القوانين والمراسيم، إلى جانب صحف أخرى تعكس آراء ومصالح فئات مختلفة من المستوطنين. استخدمت هذه الصحف كوسيلة للتأثير على الرأي العام وتوجيهه بما يخدم المشروع الاستعماري. كما سعت إلى تشكيل تصور معين عن الواقع الجزائري يبرر السيطرة الاستعمارية. وقد أدى هذا الدور إلى ظهور صحافة وطنية مضادة عملت على التعبير عن تطلعات الشعب الجزائري ومقاومته للاستعمار.

1.2 الصحافة الإستعمارية: تُعد الصحافة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر من أقدم النماذج الإعلامية التي أرسى دعائمها الاحتلال منذ الوهلة الأولى لوجوده، حيث وُظفت كأداة محورية في مشروع "الجزائر الفرنسية". لم تكن هذه الصحافة مجرد وسيلة لنقل الأخبار، بل كانت جهازا إيديولوجياً

وسياسياً متكاملاً يهدف إلى تثبيت أركان الإدارة الاستعمارية، وتأطير مجتمع المعمرين والمستوطنين، فضلاً عن دورها في محاولة احتواء الرأي العام المحلي ومخاطبته بلغة تخدم مصالح القوة المحتلة.ولقد شهدت هذه الحقبة ظهور عناوين صحفية متنوعة، تنوعت مشاربها بين المنابر الإدارية الرسمية الناطقة باسم الحكومة العامة، وبين الصحافة الخاصة التي كانت تعكس الصراعات السياسية والمطالب الاقتصادية لفئة المستوطنين. تميزت هذه الوسائل الإعلامية بامتلاكها لإمكانيات تقنية ومطبعية ضخمة وفرتها لها السلطات الفرنسية، مما جعلها تهيمن على المشهد الإعلامي لفترة طويلة قبل بزوغ فجر الصحافة الوطنية المناوئة لها.

* وفيما يلي جدول يستعرض أبرز العناوين الصحفية الاستعمارية التي طبعت تلك الفترة:

إسم الجريدة	تاريخ إصدارها	أهم القضايا التي عالجتها
L Estfette Algérienne	**1830**	**جريدة حكومية رسمية واكبت بدايات الإحتلال ركزت على الجوانب الإدارية والعسكرية.**
المبشر	**1847**	**تم تأسيسها من طرف الحكومة العامة لتكون وسيلة تواصل مع الجزائريين ونشر المراسيم والقوانين**
L Echo d Alger (صدى الجزائر)	**1912**	**من أبرز الصحف التي دافعت بشراسة عن بقاء الجزائر فرنسية كما دافعت على مصالح الأقلية الأوروبية.**
L Echo d Oran (صحيفة وهران)	**1844**	**كانت لسان حال منطقة الغرب الجزائري ركزت على قضايا الإستيطان الفلاحي والتجارة الدولية عبر ميناء وهران**

2.2 صحافة أحباب الأهالي:

تعد صحيفة "أحباب الأهالي" نموذجاً بارزاً للنشاط الإعلامي الفرنسي الذي سعى إلى تكريس الهيمنة الاستعمارية بمظهر إنساني؛ "**هي صحافة أصدرها مجموعة من الفرنسيين المنطويين تحت مبادئ الجمعية الفرنسية لحماية الأهالي والقائمة أساسا على تقديم المساعدة للمسلمين الجزائريين حتى لا ييأسوا من الوجود الفرنسي في الجزائر ويقوموا سياسته القمعية وهو ما يخدم من جهة أخرى المصالح الفرنسية**" [1]وقد عملت هذه الوسيلة الإعلامية على تجميل صورة الاحتلال

[1] أحلام باي، ظروف نشأة الصحافة في الجزائر خلال الإحتلال الفرنسي (1954/1847) ، مجلة المعيار، مج 27، ع 2، 2023، ص 06.

ومحاولة امتصاص الغضب الشعبي الناتج عن الممارسات القمعية، من خلال تبني خطاب إصلاحي ظاهري يهدف في عمقه إلى إطالة أمد الوجود الفرنسي وضمان استقراره عبر كسب ثقة النخب والسكان المحليين وإبعادهم عن فكرة المقاومة أو اليأس من الإصلاح

.

* وفيما يلي جدول يستعرض أبرز العناوين صحيفة أحباب الأهالي التي طبعت تلك الفترة:

إسم الجريدة	تاريخ إصدارها	أهم القضايا التي عالجتها
المنتخب	**1882**	**صدرت في قسنطينة من قبل فرنسيين بهدف تقديم نصائح للأهالي وتوجيههم لقبول الواقع الإستعماري**
جريدة الجزائر الجمهورية	**1937**	**أنشأت عن طريق الحزب الإشتراكي الفرنسي**
كوكب الشرق	**1882**	**جريدة اسبوعية صدرت بباريس كانت تهدف للتواصل مع النخبة الجزائرية لإقناعهم بمبادئ الجمعية الفرنسية لحماية الأهالي.**

3.2 الصحافة الأهلية: تزامنت نشأة الصحافة الأهلية في الجزائر مع هيمنة الصحافة الحكومية الاستعمارية، وظهرت في ظل بيئة سياسية واجتماعية بالغة التعقيد، حيث كابد المسلمون الجزائريون صنوف الاستغلال والبطش الممنهج الذي طال ممتلكاتهم وأرزاقهم؛ وفي ظل هذا الوضع المتردي، تنامى وعي النخبة المثقفة من الجزائريين بضرورة امتلاك وسيلة إعلامية فعالة تكون بمثابة منبر حر لنقل معاناة الشعب وشرح أبعاد القضية الجزائرية، وإيصال المطالب المشروعة إلى دوائر صنع القرار في الحكومة الفرنسية بباريس، والتي كانت هي الأخرى تراقب بقلق متزايد تجاوزات ممثليها وإداريها في الجزائر خشية انفجار الأوضاع، وهو ما أعطى هذه الصحافة دوراً مزدوجاً تمثل في الدفاع عن الهوية الوطنية من جهة، ومحاولة المناورة السياسية لتحصيل حقوق مدنية واجتماعية في ظل تضييقات قانون "الأهالي" الجائر، لتتحول بذلك من مجرد منشورات إخبارية إلى أدوات مقاومة فكرية تسعى لكسر الحصار الإعلامي المفروض على الجزائريين وتشكيل رأي عام يرفض الواقع الاستعماري المرير[2].

[2] ينظر: محمد صالح ناصر، الصحف العربية الجزائرية (1847/ 1954)، منشورات ألفا، الجزائر، 2006، ص 18.

* وفيما يلي جدول يستعرض أبرز العناوين الخاصة بصحيفة الأهلية التي طبعت تلك الفترة:

إسم الجريدة	تاريخ إصدارها	أهم القضايا التي عالجتها
جريدة المنتقد	**1925**	**عالجت قضايا الإصلاح الديني بمحاربة البدع، والنهوض الاجتماعي والسياسي بمناهضة القمع الاستعماري، ونشر الوعي الوطني بين الجزائريين.**
جريدة الحق	**1893**	**عالجت قضايا الدفاع عن حقوق الأهالي السياسية والاجتماعية، ومطالبة الإدارة الفرنسية بالمساواة في الحقوق والواجبات مع محاربة التجنيد الإجباري والدفاع عن الهوية الوطنية.**
جريدة المصباح	**1905**	**إهتمت بقضايا الأهالي الجزائريين والمطالبة بحقوقهم**
جريدة الأمة	**1933**	**اهتمت بمسالة الإندماج والتجنيس والتبشير وكل ما يتعلق بأساليب السياسة الفرنسية.**

4.2. الصحافة الوطنية:

تُعد الصحافة الوطنية الثورية في الجزائر ركيزة أساسية في مسار الكفاح التحرري، حيث تجاوزت وظيفتها الإعلامية التقليدية لتتحول إلى سلاح فكري وإستراتيجي في مواجهة الآلة الاستعمارية. وقد تميزت هذه الصحافة بتبني خطاب راديكالي يرتكز على مبدأ الحتمية الثورية وضرورة الاستقلال التام، عاملةً على صياغة وعي جمعي يرفض الوجود الأجنبي ويتمسك بالسيادة الوطنية والمقومات الأصيلة للهوية. كما اضطلعت بدور محوري في تدويل القضية الجزائرية عبر فضح السياسات القمعية أمام الرأي العام العالمي، وتفنيد الروايات الرسمية للاحتلال، فضلاً عن كونها جسراً حيوياً لربط الجماهير الشعبية بالقيادة السياسية والعسكرية، مما جعل منها منبراً للتعبئة الوطنية ومنطلقاً لتنظيم النضال وشرعنة المقاومة المسلحة كخيار وحيد لانتزاع الحرية [3].

[3] ينظر: شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط4، 1976، ص 205.

* وفيما يلي جدول يستعرض أبرز العناوين الصحف الوطنية الثورية التي طبعت تلك الفترة:

إسم الجريدة	تاريخ إصدارها	أهم القضايا التي عالجتها
صحيفة الأمة الجزائرية	**1946**	**سعت من خلال صفاحتها إلى نشر الوعي بضرورة الغستقلال التام للجزائر.**
صحيفة المغرب العربي	**1947**	**ناهضت الاستعمار الفرنسي عبر الدعوة إلى التحرر والحفاظ على المقومات العربية والإسلامية .**
الجزائر الحرة	**1949**	**تنسب إلى حركة انتصار الحريات الديمقراطية .**
صوت الشعب	**1952**	**قامت بفضح السياسة الاستعمارية وتعبئة الجماهير للنضال السياسي من أجل استعادة السيادة الوطنية**

شكلت الصحافة الجزائرية قبل الاستقلال مرآةً صادقةً للتحولات التي عرفتها البلاد، حيث تطور دورها من مجرد ناقل للأخبار إلى فاعل أساسي في المشهد، ويمكن تلخيص أبرز ملامحها فيما يلي:

- صحافة عملت على خدمة المصالح القائمة وتبرير السياسات السائدة في ذلك الوقت.
- صحافة تبنت خطابًا إصلاحيًا ظاهريًا سعيًا لكسب تأييد فئات معينة من المجتمع.
- صحافة وطنية ظهرت بمبادرات محلية، وكانت منبرًا للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الهوية.
- صحافة ركزت على مبدأ التحرر والنضال، ولعبت دورًا في تدويل القضية وتوحيد الجماهي